غرور الوهم

قصة لتوماس هاردي (١)

اشتهر هنري بتريك في أواسط القرن الماضي بكونه من ابرع المرابين واقدرهم على اقتناء القصور والحدائق والضياع والعقارات في مدينة لندن وضواحيها . ومعظم هذه المقتنيات آلت اليه لا بطرق البيع المعروفة بل كان يرتهنها من اصحابها على مقادير كبيرة من المال الى آجال معينة . وعند حلول الاجل كان اصحابها يعجزون عن فكاكها فيغلق الرهن وتصبح ارهانٌ ملكاً لهُ . وكان في اول امره محامياً . وبمزاولة هذه الصناعة صار وكيلاً لبعض النبلاء الاغنياء . فاتّسع لديه مجال العمل بالمراباة على الوجه السابق ذكرهُ واثرى إثراء فاحشاً واصبح من كبار ارباب الاملاك

وكان في وقت ابتداء هذه القصة قد شاخ وجاوز الثمانين وكان ابنهُ الوحيد قد توفي . ولكن كان لهُ حفيدان ، اكبرهما المسمى باسمه — هنري بتريك — متزوّج وعما قليل يرزق ولداً . وفي هذا الوقت أُصيب الجدّ بمرض عضال أنذرهُ بتصرّم حبل حياته ودنوّ ساعة وفاته . فكتب وصيتهُ وحبس فيها كل ما يملكهُ ، من ثابت ومنقول على حفيده الاكبر ومولوده ، إن كان ذكراً . وإلاّ فعلى حفيده الاصغر ومولوده الذكر . وإن لم يرزق هذا مولوداً آلت التركة الى الاقرباء الاباعد

وفيما هو ملقى على فراش المرض مخضت زوجة حفيده الاكبر اناث وبشّرت القابلة بمولود ذكر . وكان زوجها مطبوعاً على الاستئثار لا على العواطف وبمعزل عن الطموح الى العالي والارتقاء في معارج العز والسؤدد ، مع كونه فرع اسرة عريقة في الدهاء والاحتيال وبعد النظر . ولهذا لم يكن التوفيق حليفهُ عند ما عقد زواجهُ على فتاة كان ابوها من طبقة العامّة او ارقى منها قليلا . على ان زوجتهُ هذه كانت آية في الحسن والجمال . فلما رآها شغف بها شغفاً يفوق الوصف وما ابطأ ان خطبها من أبيها واقترن بها وهو لا يعرف عن تاريخ حياتها الاّ شيئاً يسيراً . وكان الى الآن لا يرى اقلّ سبب يدعوهُ الى الندم والاسف على اختيار هذه الزوجة الحسناء . واصبح همهُ محصوراً في ما تعانيه من الداء الذي ألمّ بها بعد الولادة وهو يتمنى لها من صميم فؤاده الإبلال العاجل والشفاء الكامل

(١) راجع ترجمته بالتفصيل في مقتطف شهر مارس الماضي

ولكن دائما — وكان حتى القتام — أعضل طبيبها فلم يبق عنده أمل بنجاتها منه . ولما شعرت بأن شمس حياتها مالت الى المغيب دعت زوجها هنري اليها وطلبت ان تخلو به على انفراد . ثم استحلفته أن يعنى بالولد بعد وفاتها أتم عناية ويتوفر على رعايته وتربيته كأب صالح وعلى محبته كأم رؤوم حنون . فأقسم لها بأغلظ الايمان ووعدها أن يفعل حسب طلبها . وبعد ما سكتت هنيهة قالت له انها لا تستطيع مفارقة الحياة بكذب مرتق لصفاء صحيفة سيرتها وخداع مدنس لطهارة سريرتها . فلا بد لها من الاعتراف والافضاء بسر رهيب قلما يوانيها الحلم ويحبس لسانها عن الكلام . وقصت عليه حادثة تتعلق بنسب الولد على خلاف ما يظن

ومع كونه حاد الشعور وسريع الاحساس كظم غيظه وتهنه من غربه متماسكا متمالكا ومتحملا هذه الصدمة العنيفة بصبر نادر المثال . وفي تلك الليلة توفيت زوجته أثناء . وقبل الاحتفال بدفنها اسرع الى جده واسر اليه كل ما حدث — ولادة ابنه واعتراف زوجته ووفاتها . وتوسل اليه بمحبته له ان يعجل في تنفيذ الوصية على وجه يحرم الموتوه الدخيل حق الارث . فاستصوب الجد هذا الامر ولم يكن في حاجة الى من يلح عليه في العمل بموجبه . ومن فوره كتب وصية اخرى حبس فيها تركته على حفيده الاكبر مدة حياته وعلى من يولد له في المستقبل من الاولاد الذكور . ومن بعدهم ينتقل الميراث الى حفيده الاصغر ادورد وورثته . وبموجبها حرم المولود الجديد ولم يُعَدّ من اعضاء اسرة بتريك

ولم تطل حياة الشيخ المرابي بعد هذه الحادثة لان اطلاعه على السر الذي افضى به حفيده اليه انشأ فيه هزة غيظ وغم لم يستطع احتمالها فقضى نحبه وانضم الى قومه . وبعد فراغ هنري من قضاء الشؤون التي عرضت له على اثر وفاة زوجته وجد نفسه وجها لوجه امام الحالة الاعتيادية وقد استراحت افكاره من جهة التأنق السيئة التي كان يخشى وقوعها لو لم يتداركها وعزم ان يتزوج مرة ثانية عند ما يظفره حسن الحظ بالحصول على زوجة حسب مشتهى قلبه

ولكن كثيراً ما يعزم الناس على شيء ثم يعدلون عنه . وذلك لانهم في الغالب يجهلون انفسهم وقلما يعرفونها كما يجب . لان مرارة النفس التي تولدت في نفس هنري بتريك بعد اطلاعه على سر زوجته تحولت شيئاً فشيئاً الى كره النساء وعدم الثقة بهن . ومع انه لقي عدة فتيات كريمات المحتد وربات حسن باهر وجمال ساحر لم يمل

فؤادهُ الى واحدة منهنَّ وخاف أن يستبد موقف الزوج ويستهدف فيه لشر لم يكن في الحسبان وخانهُ تجرّعهُ غصص الاحزان وتصمهُ بوصمة عار لا تمحى — ولذلك عاف الزواج كلَّ العياف واستعان بقوّة عقله على كبح جماح نفسه ولم يهمهُ قطُّ أن يعيش بلا نسل ولا عقب ويكون مصير التركة بعد وفاته الى اخيه واولاده قائلاً في نفسه ان هذه الخسارة ، مهما تعظم ، أيسر خطباً من تعريض اسمه للعار والشنار

وقد وفى بوعده لزوجته من جهة العناية بذلك الولد العاثر الجدّ والمكود الحظّ فاعدَّ كلَّ ما مسَّت اليه حاجة تربيته وتنشئته في بيته . وكان من وقت الى آخر ينظر اليه فيراهُ على خير ما يرام ويكلم المربية ويشدّد التوصية بمواصلة رعايته والسهر عليه . وعلى هذا الاسلوب اقام هو والولد في قصر ستابلفورد . وحدث بعد ثلث سنين انهُ خرج يتمشّى في حديقة القصر ونسي علبة السعوط على متكإ في الحديقة . ولما رجع ليأخذها وجد الولد واقفاً بجانب المتكإ وبيده العلبة مفتوحة وهو يلهو بامتشاق السعوط غير مبالٍ بما يسببهُ لهُ من توالي العطاس . فأُعجب هنري بشدة ثبات الطفل واصراره على مزاولة هذه اللعبة مع كل ما يعانيه من الشت والانزعاج وتنرس في وجهه فرأى عليه ملاح زوجته ثم اخذ يتأمل في سوء حالة الاطفال لاسيما الذين يكونون منبوذين كهذا الطفل الواقف امامهُ

ومن تلك الساعة شرع يقاوم شعوره بحبه أمله مستنيناً على اخماد جذوره بعامل شعور آخر وهو ان الانسان مفطور على المحبة . فهو بطبيعته مضطرٌّ ان يحب هذا الشيء او ذاك . ومن الحكمة ان يجري على هذه السنة الطبيعية . وهذا الاعتبار ولَّد فيه اهتماماً صالحاً بالولد روبرت . وهذا الاسم اطلق عليه بناء على التماس والدته وهي على فراش النزع . فانها طلبت اذ ذاك ان يمدَّد في غرفتها ويسمى روبرت ، خوفاً من ان تموت قبل الاحتفال بعماده علانية . ولم يخطر حينئذٍ ببال زوجها ان لهذا الاسم مغزىً مخصوصاً . ولكنهُ عرف مؤخراً ، على سبيل الاتفاق ، انه اسم مركيز كريستمنستر ان دوق سوث وسترلند وان قلب زوجته انما كان يصبو الى هذا الشاب قبل زفافها اليه . لم يتذكّر بعض الجمل التي فاهت بها زوجتهُ في حديثها الاخير ولم يفقه لها معنى في تلك الساعة . وأما الآن فانها استدلَّ على ان المركيز هو الرجل المراد بكلامها على تاريخ روبرت الصغير

وكان كلَّ يوم يقضي ساعات الصباح مجالساً لهذا الولد وهو صامت لا يفوه ببنت

شغفه ، لانهُ كان مطبوعاً على قلة الكلام ، والولد يطلق لسانهُ بالحديث اطلاقاً متواصلاً ثم يقتدره ويدخل غيرتهُ ويمعن في التبرّم والتأفف ويعزم على مقاطعة الولد وتنكّب مجالسته . ولكنهُ قلما ثبت على عزمه هذا اكثر من يوم واحد

وعلى توالي الايام ازداد هنري تعلقاً بالولد وويرت حتى اصبح تقريباً شغلهُ الشاغل والفرض الوحيد الذي يحيا لاجلهِ . وكان قبل هذا الوقت قد شعر بشيء من الغيرة لما تزوج اخوه ادورد ابنة رجل من كبار الاعيان . ولكن هذه الغيرة لم يبق لها من اثر عندما اتضح لهُ أنَّ نسب رويرت اشرف جدًّا من نسب زوجة اخيه . واخذ ذكر زوجتهِ يلطف ويطيب في ذهنهِ كلما فكّر في ما كانت عليهِ من سلامة الذوق وحسن الاختيار مع انها ليست على شيء من كرم المحتد واصالة النسب . ويمثل هذه الاعتبارات جمل يتحمَّل الاسباب لاغتفار ضعفهِ وتسويغ محبتهِ للولد حتى اصبح يعدُّه من حيث الاصل — ان لم يكن من حيث الانتماء — ممثلاً ليت هو من اشرف البيوتات الانكليزية . وكان من الذين اسرفوا في تلك الايام في احترام الملوك وانسابهم ووضعهم في مصافّ الآلهة . ولهذا كان خلاصة ما انتهى اليهِ في تأملاتهِ المبنية على هذا الاعتقاد أن الرجل الذي احبتهُ أنات من صفوة الشرفاء النبلاء فالولد ايضاً نبيلٌ وشريفٌ على رغم كل مكابر ومنازع

وكان كلما اطال التأمل في هذا الموضوع يزداد استصواباً واستحساناً لما فعلتهُ زوجتهُ المسكينة ، محاولة تحسين النسل في عشيرة بتريك . لم يجهل ما كان عليهِ اسلافهُ من ضمة الاصل وحقارة الشأن وقبح الصيت . وذكر ايضاً ان كثيرين من اقربائهِ الاحياء مقتفون خطوات آبائهم واجدادهم في طرق المثالب والمعايب . ولعله هو ايضاً مكتسب بالوراثة بعض هذه الصفات الذميمة . وكان من اسهل الامور أنها تنتقل منهُ الى رويرت لو كان من صلبهِ فيشبُّ على الشر والفساد وتتحدر شيمتهُ بحزن الى الهاوية فهو والحالة هذه يشكر الله من صميم فؤاده على ما جرى بهِ القدر وجعلهُ بمنجاة من هذا الخطر

ومما أشهر بهِ كلُّ واحد من عشيرة بتريك شدة احترام النبلاء ومحاولة التشبه بهم والافتخار بالتقرُّب اليهم ولو من اوهن الوجوه واضعف الاسباب . ففي ذات يوم قال ادورد لاخيه هنري : «ان ابنك رويرت سيكون حظهُ من دنياه مقصوراً على التنعُّم بالثروة التي تركها جدُّنا بخلاف الاولاد الذين سيولدون لي فانهم سوف يفخرون ما شاءوا بان امهم من أسرة كريمة الاصل وعريقة الجاه » فطفر قلب هنري ابتهاجاً

بما عندهُ من الاسباب التي يستطيع بها ان يحبه أحد ، ادوارد ، ويثبه فخراً عليه وعلى ما يدّعيه لزوجته من شيوف الاصل

ولشدة اهتمامه بصبيّه روبرت طفق يطالع تراجم اسرة دوق سوزوستر لند ويقف على تفاصيل الاعمال المجيدة التي سجّلها التاريخ لرجالها العظماء منذ عهد ارجاع للملكية في انكلترا فإذا بهم كلهم قد ضربوا بأسهم كبيرة في التجديد والإصلاح وأبلوا أحسن بلاء في ساحات الكفاح واحرزوا قصب السبق في سياسة البلاد وإدارة شؤون الامة على الوجه الاصح الامثل وبسطوا ايديهم في البذل والإنفاق على إنشاء المدارس والجامعات والمستشفيات وغيرها من الملاجيء والمتصدقات . ثم اخذ يفحص صور أولئك الاقطاب الفطاريف ويدقّق نظرهُ في رسوم الملامح والتقاطيع ويقابل بها ما يراهُ في وجه روبرت ليرى آثار الشبه بينهُ وبينها

ولما بلغ روبرت اشدّهُ واصبحت علاليُّ قصر سنابفورد وغرفاتهُ تردّد صدى مرحهِ وقهقهته وسائر حركات نشاطه اشتدَّ شعور عزي بتريك بتبكيت ضميره وتوبيخ نفسه اشتداداً يفوق الوصف . فقد رآهُ الآن أحقَّ انسان في العالم بالاستئثار بتركة جدّهِ على بكرة أبيها . ولكنَّ ما فعلهُ عند ولادته ، مدفوعاً اليه بعامل الحرق والرعونة ، قضى بنبذهِ وحرمانه هذا الحق . ولما كان قد صمَّم على ان لا يتزوَّج مرة ثانية فهذه التركة بحذافيرها ستنتقل بعد وفاته الى اخيه واولادهِ

ولكن وصيَّة جدّهِ الاولى كانت لا تزال باقية عندهُ ؟

والى الوصيتين اتجهت افكارهُ فصارتا موضوع همهِ في دخولهِ وخروجهِ وقيامهِ وقعودهِ . وكان كل ليلة ، بعد ما يرقد روبرت في سريرهِ ويأوي الخدم الى مضاجعهم يخلو بنفسهِ وينشر الوصية الاولى ويطالعها ويودُّ من صميم فؤادهِ لو كانت الثانية وكانت الثانية الاولى

وفي ذات ليلة بعد ما تملّى مسامرة روبرت بضع ساعات لحَّ به داعي الحرص على مصلحة هذا الولد المحبوب وعاد لا يطيق صبراً على حرمانهِ فلم يبطىء بعد خروج روبرت من عندهِ ان عمد الى الوصيَّة الاولى وارتكب جريمة التزوير في تاريخها وأخَّرهُ اسبوعين بحيث صار تالياً لتاريخ الوصيَّة الثانية بعد ما كان سابقاً لهُ . وهكذا حلَّت الوصية الاولى محلَّ الثانية

ومرَّت السنون وجاوز روبرت طور الحداثة وتوسط عصر الشباب ولكن لم يبدُ

عليه شيء من الملاح والصفات التي كان هنري يتوقع ظهورها فيه بتأثير الصبر . ثم تنبه على وجيه آسابل آل سوزوستر قد ولا تثبت احاديثه على شيء من ذكائهم الخارق وحصافة عقولهم النادرة . وحدث ذات يوم ان هنري بتريك لقي طبيباً مشهوراً كان صديقاً حميماً لاسرة زوجته أنات وطبيباً مخصوصاً لهم يدعى لمعالجة كلّ مريض منهم . وقد عرف أنات حينذاك الى ان تزوّجها هنري وانتقلت الى قصر ستابلفورد وحلّ طبيب آل بتريك محلّه . وبعد ما تعارفا وتآلفا وتجاذبا اطراف الاحاديث في كثير من الشؤون أعجب هنري بما رآه في هذا الطبيب من شدة الزكانة وقوة الفراسة ورسوخ القدم في المباحث العقلية المتعلقة بعلم النفس علاوة على تضلعه من علم الطب . ولما آنس الطبيب من هنري ارتياحاً شديداً لسماع حديثه أفاض في الكلام على استسلام كثير من الناس لتخيلات وأوهام تتسلط على عقولهم وافكارهم حتى يتعذر عليهم الافلات منها . وكثيراً ما تنتقل بالوراثة من الاجداد والآباء الى الاولاد والحفدة . ومثل على ذلك بأم أنات وجدّتها . فانهما كلتيهما كانتا مالكتين لسلطة نوع غريب من الوهم وهو اعتقاد صحة الاحلام وعدّها من الحقائق التي لا سبيل الى إنكارها . ثم سأل هنري متلطفاً هل لاحظ شيئاً من آثار غرور الوهم على زوجته ؟ وقال له انه هو نفسه كان قد سبق الى ظنه وجود أثر لهذه الخاصة او الميل في افكار أنات ايام عزوبتها . وكانت الاستيضاحات تتوالى متعاقبة في هذا الموضوع حتى رسخ في ذهن هنري اقتناع تامّ أن اعتراف أنات له كان مبنيًّا على خداع الاوهام وانّما اقرّت بحدوثه في اليقظة لم يكن الاّ من قبيل اضغاث الاحلام

ولكي يزداد وثوقاً من صحة هذا الامر اطلع الطبيب على اعتراف زوجته وكان قد حرص على كتمانه فلم يبح به الاّ لجدّه قبيل وفاته . وماكان اعظم دهشته عند ما قال له الطبيب انه لا يستغرب صدور هذا الوهم عنها نظراً الى ماكان يعهده بها من هذا القبيل

ثم واصل هنري التحري والبحث من جهات أخرى . ومن مراجعة علاقات الزمان والمكان ومقابلتها بعضها ببعض اتضح له جليًّا ان ما افضت به زوجته اليه لا يمكن ان يكون له شبه صحة على الاطلاق . فالمركيز المتّهم بميل قلبها اليه — وهو من نخبة الشبان الحائزين اكبر قسط من عزّة النفس وطهارة السيرة — كان قد برح انكلترة لسياحة طويلة قبل زواج أنات بسنة ولم يرجع الا بعد وفاتها . فحبّها له لم تكن سوى حلم انساقت الى تصديقه بقوة الوهم ! !

ولما عاد هنري الى قصره لقيهُ روبرت كعادته هاشًّا باشًّا . فاستقبله بامتعاض داخلي لعلمه ان عروق وارث اسمه وثروته لا يجري فيها سوى الدم الجاري في عروق عامة الناس . لم يبق لهُ امل بتحقق كريم المحتد . شريف الاصل . تحقَّق ان روبرت ابنهُ والمجد والشرف اللذين خيل اليه ان ابنهُ ورثهما كابراً عن كابر لم يبق لهما في وجهه من اثر . نظر اليه فلم يستطع — كما استطاع من قبل — ان يقرأ التاريخ في وجهه ويتبين آثار الادهار في عينيه

ومن ذلك اليوم فصاعداً اخذ ميلهُ اليه يزداد ضعفاً وفتوراً وشرع يلاحظ ملاح عشيرة بتريك ظاهرة عليه ظهوراً جليًّا غير مصحوبة باقل علامة من ملاح الشرفاء الذين علل نفسهُ بانتساب روبرت اليهم

ثم تذكَّر ثرقهُ وتسرُّعهُ في الحكم على زوجته بما خدش جبين طهرها وعفافها وتذكر ايضاً إقدامهُ على اقتراف جريمة التزوير في الوصية الاولى تملُّلاً بامل كاذب فاحفظتهُ هذه الذكرى المرَّة واضرمت في قلبه نار الغيظ وحقرتهُ في عيني نفسه . وذلك التزوير الذي ارتكبهُ في الوصية رآه الآن مجسماً في اسم ابنه — روبرت — وممثلاً للهزء والسخرية اصدق تمثيل ، اذ كان مَثَل ابنه الحامل لاسم المركيز مثل الحمار اللابس جلد الاسد ! وتعزيتهُ الوحيدة به صدق بنوَّته اي كونه ابنهُ حقًّا

وبعد ايام كان المركيز في جوار قصر ستابلتورد . فلقيهُ هنري بتريك وشاهد محياه طافحاً بعلامات المجد والشرف . وفي اليوم التالي إذ كان جالساً في مكتبه قُرع بابهُ . فصاح :

« من القارع ؟ » « انا روبرت »

ولما دخل زعق به صاخباً مزمجراً وقال لهُ :

« دع عنك هذا الاسم (روبرت) الذي لستَ منهُ ولا قلامة ظفر ! وقل عن نفسك انك واحد من اهل بتريك السوقة . لماذا لا يكون صوتك كصوت المركيز روبرت الذي رأيتهُ امس ؟ لماذا لا يكون لك ما لهُ من ملاح المجد والشرف وامارات العزّ والسؤدد ؟ » فاجابهُ ابنهُ في حيرة وارتباك لا مزيد عليهما

« ولماذا يجب ان يكون لي ذلك كلهُ ؟ وكيف تنتظرهُ مني يا أبي وانا لم اكن قط من اقربائه ؟ » . فصاح ابوهُ « لسوء حظك وحظي لم تكن ! »

ترجمة : اسعد خليل داغر